

صناعة أخلاقيات التربية والتعليم

في مشروع ابن خلدون

مروفل كلتوم

أستاذة فلسفة

عضوة بمخبر الفكر الإسلامي في الجزائر

جامعة جيلالي ليابس

ملخص :

يتناول المقال الفلسفة الأخلاقية للتربية في مشروع ابن خلدون، من حيث التأصيل لفلسفة أخلاقية موضوعها تنظيم مفهومي السلوك الصائب والخاطئ، وتعريفهما، والتوصية بهما. فقد قدم ابن خلدون أفكار تربوية لرجال التربية والتعليم في عصره، وهي جديرة بالأخذ في عصرنا؛ لأنها لا تقل أهمية عما يذهب إليه العلم التربوي الحديث. وهذا بعد نقده اللاذع للطرائق التعليمية التي كانت سائدة في عصره. و بدل ذلك حرص على رسم معالم مشروع تربوي أكثر فاعلية مع شروط الحياة الاجتماعية ومتطلباتها.

الكلمات المفتاحية: أخلاقيات التربية، ابن خلدون، المنهاج، صفات المعلم، المتعلم.

مقدمة:

الأخلاقيات، أو الفلسفة الأخلاقية، هي فرع من الفلسفة يتضمن تنظيم مفهومي السلوك الصائب والخاطئ، وتعريفهما، والتوصية بهما. ومصطلح الأخلاقيات بالإنجليزية "ethics" مشتق من الكلمة اليونانية ethos، التي تعني "الشخصية". والأخلاقيات متممة لمفهوم الجماليات في مبحث الأكسيولوجيا الفلسفي. تعني الأخلاقيات في الفلسفة: السلوك الأخلاقي لدى البشر، وكيف ينبغي عليهم التصرف⁽¹⁾. وإيماننا منا بالتواصل المعرفي مع الماضي، ارتأيت استحضار النموذج الخلدوني الذي وضع بصمات هامة على المنهج التربوي والتعليمي وخط لنا أهم ميثاق في أخلاقيات التربية والتعليم، فما مضمون هذا الميثاق وما أهدافه ؟ .

كلمة أخلاقيات تعني: "وثيقة تحدد المعايير الأخلاقية والسلوكية المهنية المطلوب أن يتبعها أفراد جمعية مهنية. وتعرف بأنها بيان المعايير المثالية لمهنة من المهن تتبناه جماعة مهنية أو مؤسسة لتوجيه أعضائها لتحمل مسؤولياتهم المهنية." ولكل مهنة أخلاقيات وآداب عامة حددتها القوانين واللوائح الخاصة بها، ويقصد بآداب وأخلاقيات المهنة مجموعة من القواعد والأصول المتعارف عليها عند أصحاب المهنة الواحدة، بحيث تكون مراعاتها محافظة على المهنة وشرفها.

تختلف المسؤولية القانونية على المسؤولية الأخلاقية باختلاف أبعادهما، فالمسؤولية القانونية تتحدد بتشريعات تكون أمام شخص أو قانون، لكن المسؤولية الأخلاقية فهي أوسع واشمل من دائرة القانون لأنها تتعلق بعلاقة الإنسان بخالقه وبنفسه وبغيره، فهي مسؤولية ذاتية أمام ربه والضمير. أما دائرة القانون فمقصورة على سلوك الإنسان نحو غيره وتتغير حسب القانون المعمول به، وتنفذها سلطة خارجية من قضاة، رجال أمن ونيابة، وسجون. أما المسؤولية الأخلاقية فهي ثابتة ولا تتغير، وتمارسها قوة ذاتية تتعلق بضمير الإنسان الذي هو سلطته الأولى. هنا يمكن القول أن الأخلاق بقوتها الذاتية لا تكون بديلاً عن القانون ولكن كلا من المسؤولية الأخلاقية والمسؤولية القانونية متكاملتان ولا يمكن الفصل بينهما في أي مهنة مهما كانت.

الميثاق الأخلاقي لأي مهنة يضم القواعد المرشدة لممارسة مهنة ما للارتقاء بمثالياتها وتدعيم رسالتها، ورغم أهميته في تحديد الممارسات والأولويات داخل مهنة معينة إلا أننا لا يمكن أن نفرضه بالإكراه ولكن بالالتزام وأن الطريقة الوحيدة للحكم على مهنة معينة هو سلوك أعضاء تلك المهنة إزاءها، والحفاظ على قيم الثقة والاحترام والكفاءة والكرامة⁽²⁾.

أما مفهوم أخلاقيات التربية والتعليم فهي تشترك مع مفهوم أخلاقيات العامة والخاصة وهي السلوكيات الحسنة التي يجب أن يتحلى بها الجميع مهما كانت مهنتهم أو حرفهم أو أعمالهم . وعليه فمفهوم أخلاقيات التربية والتعليم تعني الصفات الحميدة ، وأنماط السلوك الطيبة التي يجب أن تتوافر في عضو هيئة التدريس و يلتزم بها في أداء رسالته ويكون ذلك وفق ميثاق يلتزم به أعضاء هيئة التدريس في أداء مهمتهم بالطريقة المثلى يتضمن أعراف و تقاليد تحافظ علي شرف المهنة و مبادئ و قيم سامية تكفل رفعة المهنة و صفات و سجايا حميدة يتحلى بها أعضاء هيئة التدريس⁽³⁾.

وقد غدت اليوم قضية النظر في أخلاقيات التربية والتعليم إحدى القضايا المطروحة على كافة الأصعدة، العالمية، والإقليمية، والمحلية، وهي ليست بالجديدة على ساحتنا العربية، فقد كان النظر في الأخلاقيات التربوية هاجسا ملحا لدى النخب السياسية والثقافية منذ مطلع النهضة في القرن التاسع عشر، وإن تعددت منظوراته وتباينت الوسائل المطروحة لتحقيقه. غير أن ما شهده العالم في الحقبة الأخيرة فيما صار يعرف بـ"العولمة" وما كشفت عنه الأحداث في المجال العربي، جعل خطاب الإصلاح يبرز من جديد، متفاعلا مع معطيات العصر ومتغيراته، مشتملا على إشكالات كثيرة، منها الحكم الصالح والديمقراطية والشفافية وحقوق الإنسان والتربية.

2 - أخلاقيات التربية في مشروع ابن خلدون :

لقد قدم ابن خلدون أفكار تربوية لرجال التربية والتعليم في عصره، وهي جديرة بالأخذ في عصرنا؛ لأنها لا تقل أهمية عما يذهب إليه العلم التربوي الحديث. وهذا بعد نقده اللاذع للطرائق التعليمية التي كانت سائدة في عصره، وكيفية تأدية المعلمين لها: "وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا، يجهلون طرق التعليم وإفاداته ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه ويكلفونه وعي ذلك وتحصيله، ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها"⁽⁴⁾.

لقد حرص المصلح الاجتماعي والتربوي على صناعة أخلاقيات التربية، تلك الأخلاقيات التي لا تختلف أسسها ومبادئها عما يدعو إليه العلم التربوي الحديث، بل تتميز عن الأخلاقيات الجديدة ببساطتها التي ترتبط أساسا ببساطة المعلم .

وتظهر معالم هذه الصناعة في الطريقة الناجعة التي رسمها في تعليم الناشئة، وفي تحديده للأخلاقيات والشروط الواجب توفرها في المعلم والمتعلم، فقد أكد صراحة أن عملية التعلم والتعليم طبيعية في العمران البشري، حيث يقول : "...ذلك أن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانته من الحس والحركة والغذاء والكن وغير ذلك ، وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه والاجتماع المهيئ لذلك التعاون،...ثم لأجل هذا الفكر وما جبل عليه الإنسان بل الحيوان من تحصيل ما تستدعيه الطبائع فيكون الفكر راغبا في تحصيل ما ليس عنده من الإدراكات ، فيرجع إل من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة فيلقن ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه ... فقد تبين بذلك أن العلم والتعليم طبيعي في البشر"⁽⁵⁾ .

فالإنسان متميز عن سائر خلق الله بالفكر الذي يهتدي به، فهو تواق إلى تحصيل ما ليس عنده من الإدراكات، فينشأ عن ذلك موقف تعليمي. وتقوم عملية التعلم عادة على ثلاثة أعمدة، وهي المعلم والمتعلم والطريقة. وتتحقق الأهداف التربوية والتعليمية بمقدار ما يتوفر لهذا الموقف التعليمي من شروط. ذلك أن التعلم عموماً هو "اكتساب العلوم واجتلابها إلى القلب"⁽⁶⁾ قال ابن خلدون: "اعلم أن العلوم البشرية خزانتها النفس الإنسانية بما جعل الله فيها من الإدراك الذي يفيدها ذلك الفكر المحصل لها التصور للحقائق أولاً، ثم بإثبات العوارض الذاتية لها أو نفيها عنها ثانياً".⁽⁷⁾

2 - 1 أخلاقيات المعلم :

من الصعب الفصل في أي علم بين المنهج والموضوع، والأخلاقيات فبدون منهج تصبح كل دراسة علمية لأي موضوع أو ظاهرة مستحيلة، فلا يمكن تطبيق أي منهج، دون توفر موضوع ولا يمكن تلقين أو ممارسة أي موضوع بدون أخلاقيات .

وفي ضوء هذا أورد ابن خلدون في أثناء تحديده للمنهج التربوي السليم أخلاقيات دينية، ودنيوية، ينبغي على المعلم والمتعلم التحلي بها، حتى تكون عملية التعليم ناجحة، ومثمرة، فمن البديهي أن الإنسان لا يتعلم أية خبرة أو مهارة فكرية إلا إذا كان حاصلًا على الشروط اللازمة للقيام بمثل هذه العملية، فدعا إلى اصطناع تربية راقية، مبنية على العدل، والرفق، والحرية، تلخصت هذه الأخلاقيات فيما يلي :

✓ إخراج رجال التعليم من الطبقة السياسية :

أولى أخلاقيات التربية والتعليم قداسة رسالة التعليم، لذا أخرج ابن خلدون رجال التعليم من الطبقة السياسية، لإيمانهم بمنطق المبادئ والثوابت، لا بمنطق المصالح والمتغيرات، ولانقطاعهم في نكران ذات، لمهمة تكونهم الخاص، للاستجابة لانتظارات متعلميهم وانشغالهم المعرفية، والعقلية والنفسية والاجتماعية حيث يقول ابن خلدون : "فهم متعودون -العلماء- في سائر أنظارتهم الأمور الذهنية والأنظار الفكرية لا يعرفون سواها والسياسة يحتاج إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال ويتبعها فإنها خفية"⁽⁸⁾ لذلك جرح منهج ابن خلدون التربوي والأخلاقي، نحو التفرغ من أجل الإبداع والأخذ بالأسباب، والتعليل، والعقلانية، والطابع العلمي، في عملية التعليم والتعلم، للمرور من القدرة الفطرية، والوراثة، إلى الملكة القابلة للتنمية، المؤمنة للاكتساب المستمر، عبر تجنب مسار الاقتباس والتقليد، والنقل، الذي يقتل العملية التعليمية، وتذوب فيه ذات المتعلم وعليه يؤكد ابن خلدون أن العلوم البشرية خزاناتها النفس الإنسانية بما جعل الله فيها من الإدراك الذي يفيدها .

✓ التروي والصبر على المتعلم :

على المعلم أن يذكر للمتعلم إلا ما يستطيع تحمله، مراعيًا قدراته واستعداداته على تلقي تلك المادة العلمية، إذ يقول : " اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً ، وقليلًا قليلًا ، يلقي عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ، ويراعي في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن وعند ذلك تحصل له ملكة في ذلك العلم ⁽⁹⁾ . فمن أخلاقيات المعلم الصبر والتروي وهذا ما لخصه في التقيد بالتدرج في عرض أية مسألة علمية، باعتبار التدرج أحد المبادئ المساهمة في نجاح العملية التعليمية، ويكون ذلك ببدء المعلم بالشيء الواضح من العلم قبل الغامض، وبالبسيط قبل المعقد، وبالجزء قبل الكل، وبالعملي قبل النظري، وبالمحسوس قبل المجرد، فلا يبدأ بالعويص من المسائل فيغرق في أمور لا يحتملها، فيؤدي به إلى الفشل.

كما ينبغي على المعلم الاستيفاء بالشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هناك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته ، ثم يرجع به وقد شدا ، فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا مغلقا إلا وأضحى ، وفتح له مفضله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته. هذا وجه التعليم المفيد. ⁽¹⁰⁾ .

الملكة لا تحصل إلا بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواصه تركيبه يقول ابن خلدون: "...وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه ⁽¹¹⁾ ، فالتكرار إذن مبدأ ضروري لتكوين الملكة؛ لكونه عاملاً أساسياً لتحقيق عملية التعلم ، فهذا التحديد للملكة اللسانية من قبل ابن خلدون نراه صالحاً لأن يكون المقابل العربي لمفهوم الكفاية عند نوام تشو مسكي، وكثرة التكرار تؤدي إلى الحفظ الذي يزيد صاحب الملكة رسوخاً وقوة، ولا يحصل ذلك إلا بعد فهم كلام العرب. ولعل هذا ما تقره اللسانيات التربوية الحديثة، حيث يعمل المربون حديثاً بهذه المبادئ- التدرج، والتكرار والبحث على الممارسة- في تلقين العلوم.

✓ الكفاءة والإحاطة بمبادئ التعليم :

أن يكون المعلم ذا ثقافة عامة تمكنه من إفادة المتعلمين إفادة متنوعة، توسع في الوقت نفسه من أفقه المعرفي وتحفظه من بلبلة أفكارهم بالمعلومات الخاطئة أو المعارضة أو من مغبة التعصب الأعمى ضد العلوم

التي لم يعرفها عن قرب أو بعد، قال ابن خلدون في هذا الصدد : " ذلك أن الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك التناول حاصلًا وهذه الملكة هي غير الفهم والوعي ، لأننا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعياها مشتركا بين من شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه ، وبين العامي الذي لم يحصل علما وبين العالم النحرير، والملكة إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون من سواهما"⁽¹²⁾. باعتبار التعلم صناعة شأنها شأن باقي الصناعات الأخرى كما ورد على لسان ابن خلدون، فنجاحها وفشلها يرتبطان بالقائمين عليها، والمعلمون هم سند هذه الصناعة، فالتعليم والتربية عند ابن خلدون من الصنائع؛ بمعنى وجوب امتلاك كفاياتها النظرية والتطبيقية عبر التمرن والمراس والبحث والدراسة. وبذلك تنتفي العشوائية والارتجال عن فعل التربية والتعليم عند ابن خلدون؛ لما يتطلبه من المعرفة العلمية الدقيقة بما هي التربية، وهذا المبدأ يمثل اليوم إحدى الاهتمامات الرئيسة للمشرفين على قطاع التربية والتعليم، حيث سنت الوزارة برامج تخص تكوين المكونين، وأحدثت المراكز والهيئات لاستقبال رجال التربية والتعليم؛ وهذا كله بهدف توسيع وتجديد معلومات المربين، وتدريبهم على استخدام التكنولوجيا في العملية التعليمية.

✓ المعاملة الحسنة وعدم الشدة على المتعلمين:

فقد أورد ابن خلدون في كتاب " المقدمة " فصل بعنوان " الشدة على المتعلمين مضره بهم " حيث يقول : " وذلك أن إرهاف الحد في التعليم مضر بالمتعلم : ولا سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة . ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر ، وضيق على النفس في انبساطها ، وذهب بنشاطها ودعا على الكسل وحمل عل الكذب والخبت وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك وصارت له هذه عادة وخلقًا وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن"⁽¹³⁾. إذن المعاملة الحسنة من شأنها توطيد العلاقة بين المعلم والمتعلم من جهة وترسيخ المبادئ والأفكار من جهة أخرى.

✓ الإيجاز المفيد في تقديم المسائل العلمية وحسن الانتقاء:

دعا ابن خلدون المربين إلى عدم الاستكثار من العلوم الآلية التي لا ينبغي أن توسع فيها الأنظار ولا توسع فيها المسائل، منها على سبيل المثال لا الحصر علم النحو، ويرر ذلك بأن التعمق والاستكثار من مسائله المفضلة سيخرجها عن المقصود، ويصير الاشتغال بها لغوا، خاصة ونحن نعلم أن النحو العربي أنحاء

ومدارس مختلفة: وأن الهدف الأسمى منه هو معرفة صواب الكلام من أخطائه، وإصلاح الألسنة من اللحن أو اللكنة كما قال الشاعر⁽¹⁵⁾:

النحو يصلح من لسان الألكن
والمرء تكرمه إذا لم يلحن
وإذا طلبت من العلوم أجلها
فأجلها نفعا مقيم الألسن.

وهو في هذا المذهب ينحو نحو "الجاحظ" الذي دعا إلى ضرورة تعليم النحو الوظيفي الذي يجري في المعاملات، والتمييز بين النحو كعلم والنحو كتعليم، تضمن ذلك قوله: "وأما النحو فلا تشغل قلبه (قلب الصبي) منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه، وشيء إن وصفه، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به"⁽¹⁵⁾.

وعليه فإن الاشتغال والإكثار من المسائل، يصير في رأيه من باب اللغو، جاء ذلك في قوله: "... وهذا كما فعله المتأخرون في صناعة النحو... لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها نقلا واستدلالا، وأكثروا من التفاريع والمسائل بما أخرجها عن كونها آلة وصيرها مقصودة لذاتها. وربما يقع فيها لذلك أنظار ومسائل لا حاجة بها في العلوم المقصودة بالذات فتكون لأجل ذلك من نوع اللغو، وهي مضرة أيضا بالمتعلمين على الإطلاق"⁽¹⁶⁾.

كما نبه ابن خلدون أيضا إلى أن الاختصار المخل سيحدث لا محالة ضررا في إيصال المعاني، والإكثار منها في العلوم يخل بالتعليم: "ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم يولعون بها ويدنون منها برنامجا مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسيرا على الفهم... وهو فساد في التعليم"⁽¹⁷⁾.

حذر ابن خلدون من كثرة التأليف في العلوم: ومن ذلك ما يقرره بشأن دراسة كتب كثيرة تتكرر فيها الحقائق العلمية نفسها بعبارات وأساليب مختلفة، وهي الطريقة التي كانت سائدة في عصره حيث يقول: "اعلم أن مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف، واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك، وحينئذ يسلم له منصب التحصيل، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها، ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها فيقع القصور"⁽¹⁸⁾. إذن كثرة التأليف من شأنه أن يصعب عملية الاستعاب.

✓ الاستقامة والاستمرار في تلقين العلم وعدم الخلط بين الفنون:

ألح ابن خلدون على عدم الانتقال من مسألة علمية إلى مسألة أخرى قبل فهم المتعلم للمسألة الأولى، ولذا يجب عليه الاستمرار في تلقين المسألة الواحدة إلى أن ينتهي منها، ويتحقق أن المتعلم قد استوعبها، وحذر من انقطاع المجالس والتفريق فيما بينها؛ لأن ذلك يؤدي إلى النسيان أولاً، ويؤول إلى عدم تعلق المسائل بعضها ببعض ثانياً، جاء ذلك في قوله: "وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها"⁽¹⁹⁾، وهنا إشارة من ابن خلدون على الإلتزام والاستقامة في العمل لأن الملكات تحصل بتتابع الفعل وتكراره وهذا لا يحدث إلا بالحضور المستمر للمعلم.

كما نبه إلى عدم الخلط بين المسائل في قوله: "... ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معاً، فإنها حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما، لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر، فيستغلطان معاً ويستصعبان، ويعود منهما بالخيبة..."⁽²⁰⁾ وهو بهذا يؤكد على الجانب المنهجي في طريقة التلقين، بعدم الخلط بين علمين؛ لأن ذلك من شأنه يؤدي إلى خيبة الأمل لدى المتعلم، حيث يصرف باله، ويضعف ملكته في النفس أو يؤخرها على الأقل؛ لانصراف الذهن، مما ينبغي الاهتمام بمسائل العلم المولدة للملكة العلمية وعدم الخلط بينها. وإذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصر عليه، فربما كان ذلك أجدر بتحصيله"⁽²¹⁾، هذا الموقف يتوافق مع علم النفس الحديث الذي يؤمن بمبدأ قليل عميق خير من كثير سطحي.

✓ ضرورة مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين:

ينبه ابن خلدون في صناعة أخلاقيات تربوية إلى ضرورة الإقرار بمراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين، فالعوامل النفسية والجسمية والبيئية تؤدي دوراً أساسياً في تحديد حجم التعلم، بحيث يتفاوت ذلك الحجم بين فرد وآخر، فالأفراد يختلفون في درجة الذكاء وفي قدرة الاستيعاب: "... وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه"⁽²²⁾.

ومراعاة هذا المبدأ أكدّه العلم اللساني الحديث؛ ذلك أن الأنما لا يتكلمون على منوال واحد، بل تجدهم، حتى في حالة انتمائهم إلى المحيط الاجتماعي نفسه، يختلفون في سرعة السرد، ويتفاوتون في رصيدهم من المفردات⁽²³⁾ ويتميزون من حيث الصوت، ومن جملة تلك الفروق، ما يلاحظ لدى الناس من

أن لكل واحد منهم أسلوبا ينفرد به في الإنشاء الأدبي، وفي سرعة تحصيل العلم والمعرفة. ومن هنا طوّل القائلون على عملية التعلم ابتداء من الأنبياء إلى الأساتذة والمربين بأن يخاطبوا الناس على قدر عقولهم وهذا بمراعاة المستوى العقلي، وتنمية العمليات الذهنية، ليرتقي المتعلم في مستويات الفهم، والحدق عن طريق تعليمه الكتابة أو الخط، لأنه يقوي النظر العقلي، ويمهر المتعلم على الانتقال. على ذكر المتعلم يرصد لنا -ابن خلدون - جملة من الأخلاقيات التي ينبغي على المتعلم الالتزام بها .

2 - 2 أخلاقيات المتعلم:

الحفظ: على المتعلم أن يكثر من الحفظ حيث يقول ابن خلدون: "لابد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربي وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ ... وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم إجادة الملكة من بعدهما"⁽²⁴⁾، فمن أخلاقيات المتعلم التعود على الحفظ ويروم ابن خلدون إلى ضرورة حفظ الشعر الذي يجعل الملكة أكثر جودة وأعلى مقام .

✓ الإصغاء أو السمع الجيد :

إن المتعلم مطالب في بداية تعليمه بالإصغاء لمعلمه واستيعاب العلوم المختلفة عنه قبل أن يتطرق للاختلافات من المذاهب، ذلك أن السمع أو الإنصات هو أبو الملكات اللسانية في نظر "ابن خلدون"، فالشيء الذي يعين المتعلم على فتح لسانه بالمحاور والكلام والمناظرة، هو الانغماس الكلي في وسط لغوي عضوي، إذ يسمع ثم يقلد أو يردد ما يسمعه، وهذا ما طرقه "ابن خلدون" في معرض تفسيره لقول العامة أن اللغة للعرب بالطبع، حيث يقول: "فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأسايلهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها... ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم"⁽²⁵⁾ فالتعليم في الصغر أشد رسوخا وهو أصل لما بعده "لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب أساس وأسايله يكون حال من ينبنى عليه."⁽²⁶⁾ وقد أكد علم اللسان التربوي الحديث على ضرورة الاهتمام بملكة السمع باعتبارها الحاسة الأولى المساهمة في عملية التعلم، وهو من المبادئ اللسانية التربوية التي أقرها، ويسمى عند جمهور اللسانيين التطبيقيين "الحمام اللغوي أو الانغماس اللغوي bain linguistique" ⁽²⁷⁾ وهي تأتي في المرتبة الأولى: ذلك أن الإنسان يسمع قبل أن يتكلم.

وهذه الملكة تحصل في رأي ابن خلدون: "... بممارسة كلام العرب وتركه على السمع والتفطن لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك" (28).

والظاهر لنا جليا أن ابن خلدون قد أعطى السمع الأولوية في امتلاك ناصية العلم، معتبرا إياه أبا لجميع الملكات؛ ذلك: "إن الطبيعة وهبت الإنسان لسانا واحدا، ولكنها وهبتة أذنين... والحكمة في ذلك هي أن يسمع ضعف ما يتكلم" (29) ونجد "ل. بلومفيلد" يشارك ابن خلدون في إعطاء ملكة السمع درجة من الأهمية، حيث استغل المنهجية السمعية الشفهية في تحليله التوزيعي للغة وفق المحورين الصري والتركيب، إذ من خصائص هذه المنهجية: الاهتمام بالمنطوق والمسموع قبل المقروء والمكتوب ومن ثمة العمل على تنمية اللغة الشفهية، وتقديم اللغة المراد تعليمها في شكل حوار يسجل على أشرطة مغناطيسية تتحول بعد ذلك إلى مخابر اللغات ثم الاعتماد على التكرار الشفهي المكثف من أجل ترسيخ الجمل المثالية، وأيضا التكثيف من المحاكاة والحفظ ثم استعمال التمارين البنوية.

✓ الاستعداد:

على المتعلم الاستعداد للتعليم والتفرغ للعلم، والابتعاد عن إغراءات الدنيا وشهواتها: "فإن قبول العلم والاستعدادات لهما تنشأ تدريجا ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال والأمثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه" (30) ولن يتأتى ذلك إلا بإقامة علاقة وطيدة بين المعلم والمتعلم، والتدرج بالمتعلم مع تشويقه للمادة المراد تلقينها، وهذا بعد دراسة نفسيته واستعداداته العقلية: "واعلم أيها المتعلم أنني أتحفك بفائدة في تعلمك فإن تلقيتها بالقبول وأمسكتها بيد الصناعة ظفرت بكنز عظيم وذخيرة شريفة وأقدم لك مقدمة تعينك في فهمها وذلك أن الفكر الإنساني طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته وهو وجدان حركة للنفس في البطن الأوسط من الدماغ.... ثم الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية تصفه لتعلم سداه من خطئه" (31).

ويعد قانون الاستعداد من المبادئ التي اعتمدها العالم "ثورندايك" في نظريته التعليمية، والهدف من ورائه هو توضيح معنى الارتياح والانزعاج، ورأى أنه مفيد بالنسبة للتعلم الإنساني بصورة خاصة.

وكما دعا ابن خلدون المتعلم إلى ضرورة التحلي بالمنطق مع صدق النية والاستمطار برحمة الله متى أقفلت وأعوز عليه فهم المسائل ، فالعلم من عند الله.

✓ ضرورة مرافقة وملازمة الطلبة لشيخ العلم والرحلة في طلب العلم:

إن ترسيخ ملكة العلم يكون بملازمة رجال العلم، ذلك أن طرائق شيوخ العلم متعددة، فلكل طريقته الخاصة في تلقين العلوم، ومن أخلاقيات المتعلم الذي يريد الاستزادة من العلم وتقوية ملكته ملازمة الشيوخ، والرحلة إن اقتضى الأمر للقاء بشيوخ العلم: "فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها والاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم حتى لقد كثير منهم أنها جزء من العلم . ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين. فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصل وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المكان وتصحح معارفه وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتها من المشيخة عند تعددهم وتنوعه"⁽³²⁾. لذا أكد - ابن خلدون - اعتماد مبدأ المصاحبة ، والاعتراف من المصدر، لأنه يمكن من المرافقة العلمية عن قرب، والتتلمذ على يد المشايخ، استيعاب الاختلافات بينهم في مناهج التدريس، وتجريد العلوم بعد استيعابها من الميدان، ثم تمييزها، والتعالي على الاصطلاحات العلمية، بين شيوخ العلم.

فالتعليم المفيد في نظر- ابن خلدون- يمر عبر-1: التعلم، وحياسة المعرفة، لإشباع حاجة فطرية في عقل الإنسان-2. التعمق في العلوم، والتخصص فيها، والانتقال من الهواية إلى الاحترافية، والصناعة-3. تعليم المتعلمين، وتكوين الأجيال ونشر الإشعاع العلمي، لنقل الحضارة ، لأن الفكر الإنساني يتطور بالتعلم، ويطور المجتمع بالتعليم وكل هذا لا يتأتى إلا بصناعة أخلاقيات لمهنة التربية والتعليم التي هي في الأساس مسؤولية أخلاقية تعبر عن خطاب المعلم والمتعلم مع ضميرهما الإنساني الحي.

خلاصة:

خلاصة القول إن العلامة "ابن خلدون" يعد بحق موسوعة علمية، تناولت شتى حقول المعرفة العلمية، فصناعة أخلاقيات تعليمية و تربوية لا تقل أهمية عما يذهب إليه العلم التربوي الحديث، بل يمكننا القول أن له فضل السبق إلى كثير منها ، وبخاصة ما تعلق بأخلاقيات التدريس وطريقتها، والتي نبه فيها المعلم إلى ضرورة توخي التروي المتمثل في التدرج والتكرار في عرض المادة العلمية، والتحلي بمبدأ التشويق مع مراعاة استعدادات المتعلمين، والأخذ بعين الاعتبار الفروق الفردية بين المتعلمين في أثناء تلقين

العلوم ،فقد تنبه إلى عديد من الأفكار التربوية التي يدعو إليها علم التربوي الحديث،وبخاصة ما تعلق بالشروط الواجب توفرها في المعلم والمتعلم،كما أسلفنا الذكر .

إن ابن خلدون غلبت عليه سمة المصلح الاجتماعي الذي يضحى بقوته كلها وإمكاناته في سبيل تقدم الفرد والمجتمع على السواء؛لذلك كان في أقواله وأعماله مرآة تعكس أوضاع المجتمع وحاجياته،فهو يقوم أولاً بتشخيص أمراض مجتمعه وعمله وأسقامه،ثم يشرع في الدعوة إلى الإصلاح،بتقديم شتى الأساليب والحلول التي تستند إلى راحة العقل والتفكير، وصدق النية لدى المعلم والمتعلم على حد سواء ، ولعل هذا إن دل على شيء، إنما يدل على أصالة فكره وقدرته الإبداعية في صياغة فكر إنساني أصيل ،أسهم مساهمة فعالة في المعرفة الإنسانية.

الإحالات والهوامش:

- 1- الهوش، محمود أبوبكر،التقنية الحديثة في المعلومات والمكتبات ، نحو استراتيجية عربية لمستقبل مجتمع المعلومات، القاهرة ، دار الشروق للنشر والتوزيع، 2002،ص200. نقلا عن موقع فلسفة <https://ar.wikipedia.org/wiki/>
- 2- المرجع نفسه ، ص 95.
- 3- العنزي سعد والساعدي مؤيد ، أخلاقيات الإدارة : مداخل التكوين في منشآت الأعمال ، المجلة العراقية للعلوم الإدارية ، (2002)،المجلد (1) ، العدد (3) ، ص 113.
- 4- ابن خلدون ،عبد الرحمن بن محمد ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق : علي عبد الواحد وإفي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، الإسكندرية ، [دت :دط]، ج 1 ، ص 127 .
- 5- ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 924- 925.
- 6- أبو حامد الغزالي،الإحياء، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1957، [دط] ج 3، ص 21.
- 7- ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 924 .
- 8- ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج 3، ص 1121.
- 9- المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 128.
- 10- المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 128 .
- 11- المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 128 .
- 12- المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 925.
- 13- المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 131.
- 14- أحمد الهاشمي،القواعد الأساسية للغة العربية حسب منهج"الألفية" لابن مالك وخلاصة الشراح لابن هشام وابن عقيل الأشموني، دار الكتب العامة، بيروت، [دت :دط]، ص 4.
- 15- الجاحظ، رسائله، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، 1979، ط 1، ص 38.
- 16- ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج 3، ص 1131.
- 17- المصدر نفسه ، ج 1، ص 128.
- 18- المصدر نفسه ، ج 1، ص 129.
- 19- المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 1111.
- 20- المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 1111.
- 21- المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 1111 .
- 22- المصدر نفسه ، ج 1، ص 128.

- 23- حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، المؤسسة الوطنية للكتاب وديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، [دت]، ط 3، ص 225.
- 24- ابن خلدون، المصدر السابق، ج3، ص 1169 .
- 25- المصدر نفسه، ج3، ص 1140.
- 26- المصدر نفسه، ج3، ص 1141 .
- 27- بشير ابرير، الخطاب اللساني العربي بين التراث والحداثة، الملتقى الوطني الثاني "الصوتيات بين التراث والحداثة"، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة سعد دحلب، البليدة، نيسان 2002، ص 38.
- ❖ المقصود بـ "Bain linguistique" "الانغماس اللغوي" وهو مصطلح عربي أصيل.
- 28- ابن خلدون، المصدر السابق، ج3، ص 1140.
- 29- المصدر نفسه، ج3، ص 1141.
- 30- المصدر نفسه، ج3، ص 1110 .
- 31- المصدر نفسه، ج3، ص 1112 .
- 32- المصدر نفسه، ج3، ص 1120 .